

المحاضرة الثالثة

الإمبراطورية القرطاجية (نشأتها وتطورها السياسي في بلاد المغرب القديم).

1- موقع قرطاج : تقع قرطاج على شاطئ خليج عميق على شبه جزيرة تحيط بها المياه من جميع الجهات تقريبا وهو يشبه كثيرا موقع مدينة صور، ويذكرها المؤرخ بوليبيوس : Polybius (...توجد قرطاج على خليج وسط شبه جزيرة، أين يحيط بها البحر من معظم الجهات من ناحية والبحيرات من ناحية أخرى....) ، وهي تطل على خليج تونس من الجنوب وعلى المتوسط من الشرق ومن الشمال تطل على بحيرة سوكرات وتتصل بالبر من جهة الغرب عن طريق برزخ يبلغ عرضه 25 غلوة (4400 متر) وينتهي بنتوء صخري يبلغ ارتفاعه 150 مترا وينقسم إلى قسمين بحيث تمتد في شماله أراضي مستوية خصبة صالحة للزراعة ونجد في الجنوب أودية صغيرة و ثلاث تلال صعبة الاختراق مشكلة منفذا إلى داخل البلاد وفي الموقع نجد قلب المدينة قرطاج .

وقد امتازت مدينة قرطاج بموقعها الإستراتيجي، هذا القول ما ذكره المؤرخ أبيان Appian في القرن الثاني قبل الميلاد عن وصفة لها قائلا: "إنها تشبه السفينة الراسية، ذلك لأنها قد بنيت في شبه جزيرة محاطة بالبحر من ناحية وبالبحيرتين من ناحية أخرى، مما يجعل وجهتها بحرية أكثر منها برية" وتعتبر قرطاج نموذجا للمدينة القرطاجية، التي تعبر بصدق عن التفكير القرطاجي والحياة القرطاجية والنشاط السياسي والاقتصادي في تلك العهود.

ولقرطاج موقع استراتيجي بامتياز يعكس مهارة الفرد الفينيقي في تشييد المحطات والمستوطنات وهذا الموقع كان نتيجة المعرفة الكبيرة بجغرافية المنطقة فقد سبق تأسيس قرطاج تأسيس العديد من المستوطنات الأخرى حيث لم يكن اختيار موقع قرطاج صدفة ولم يكن بسبب العثور فيه على رأس حصان كما نجد في الرواية بل كان نتيجة تخطيط واضح ومدروس تم الاستعداد له مسبقا .

2- تأسيس مستوطنة قرطاج : جاء في محتوى أسطورة عლისا أنه: " بعد وفاة متان Muttan حاكم مدينة صور رجع الحكم لابنيه عليسا Ellissa وبغماليون Pygmalion وقد كانت الأميرة عليسا تتمتع بقدر كبير من الجمال، فتزوج منها خالها عاشر باس Acherbas الكاهن الأكبر لمعبد الإله ملقارت وقد كان هذا الكاهن ذا جاه وثروة، حيث خشي عليها من اللصوص فدفنها تحت جدران المعبد، وعندما بلغ نبأ الكنز المدفون أسمع

بغماليون، الذي كان هو الآخر شغوفاً بالثروة، اغتنم الفرصة وقتل زوج أخته بغية الحصول على ماله ، ولما عرفت عليسا بمكيدة أخيها بغماليون، حملت أموال زوجها وأبحرت خفية صحبة أتباعها إلى جزيرة قبرص حيث انضم إليها هناك أحد كهنة الآلهة عشتارت Astarte بعدما ضمن لنفسه الإشراف الديني على المدينة الجديدة ، أبحرت عليسا بعد ذلك إلى بلاد المغرب القديم، حاملة ثمانين فتاة من فتيات المعبد ليكن أزواجا للشباب الذين كانوا معها، فنزلت بالقرب من أوتيكا وقد رحب بها سكان المنطقة من المغاربة الذين ابتاعت منهم قطعة أرض بمقدار جلد ثور، وقد قطعت الجلد إلى أشرطة صغيرة أحاطت بمساحة تكفي لبناء مدينتها الجديدة قرط hadacht kart وسميت بذلك بيرصا ثم قدم ممثلين من أوتيكا وحثوا الوافدين الجدد على تأسيس المدينة في الموقع الذي اسروا به وافق الليبيون على ذلك لقاء دفع ضريبة سنوية وأثناء حفر أسس المدينة عثر على رأس ثور وهو دليل على أن الأرض خصبة لكن صعوبة الاستغلال فرأوا فيها استعبادا دائما فحفروا في موقع أخرجت عثروا على رأس حصان وهو رمز للقوة والأمان وتم حفر أسس المدينة التي دعمت وامتدت بفضل قدوم عدد هام من السكان ليقوم بعد ذلك الملك الماكسيثاني maxitani بطلب يد عليسة للزواج مهددا بالحرب في حالة الرفض لكن عليسة ظلت مخلصه لذكرى زوجها فعمدت إلى إقامة محرقة كبيرة قدمت فيها قرابين لذكراه ثم ألقت بنفسها فيها " حيث الهت الملكة عليسا بذلك الفعل على امتداد التاريخ القرطاجي.

من محتوى أسطورة عليسا نستنتج وجود اضطرابات سياسية داخل البيت الملكي في مدينة صور نتج عن ذلك انسحاب عليسا لبدء حياة جديدة بعيدا عن الصراعات السياسية، وما تجدر الإشارة إليه هو أن قرطاجة بعد تأسيسها بقيت تابعة لصور، حيث كانت ترسل لها الإتاوات كل عام حتى القرن الخامس قبل الميلاد.

أما تاريخ تأسيس مستوطنة قرطاج فنكاد نجد إجماع بين المؤرخين على أن التأسيس كان سنة 814 ق.م من طرف الأميرة عليسة ، ومن خلال رواية جوستان يمكن القول أن تأسيس قرطاج كان نتيجة الصراع بين القصر و المعبد لكن هذه الفرضية تصطدم بغياب العداوة والصراع بين قرطاج وصور في المصادر الأخرى بالعكس فقد كانت قرطاج تشيد بالعاصمة صور عبر مختلف الأزمنة الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن التأسيس كان بطريقة سلمية ومخططا له من طرف العاصمة صور .

3- التطور التاريخي لمستوطنة قرطاج : قبل أن تصبح قرطاجة عاصمة للمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، لم تكن في أول الأمر سوى إسكالا متواضعا بين سائر المراكز التجارية الأخرى، فقد عاشت قرطاج عيشة متواضعة خالية من كل مظاهر القوة والعظمة تكاد تكون مجهولة بين المستوطنات الأخرى ، وظلت تدفع الجزية للسكان المحليين لمدة تزيد عن ثلاث قرون (814-480 ق.م) وكان وضعها الجغرافي يساعد على التوسع و التبادل مع العالم الشرقي أو الغربي، وكذلك كان لوضعها العسكري مزايا هامة لأنها أقيمت من قبل بقية المدن الفينيقية في رقعة من الأرض متوغلة في البحر، لا يربطها بالبلاد إلا قطعة مستطيلة تفصل بين بحيرة تونس الحالية التي كانت صالحة للملاحة وسبخة أريانة، وبذلك كانت تتحدى حصار الأعداء كمثيلتها صورTyr في حوض البحر المتوسط الشرقي، وذلك باعتمادها على سور قوي يحميها من جهة اليابسة التي لا تزيد عن أربع كيلومترات الأمر الذي ساعدها بان تتمكن من فرض نفسها وقوتها في البحر المتوسط، فأصبحت مركزا تجاريا لها قوة بحرية مع بداية القرن السادس قبل الميلاد وأصبحت بذلك المسئول المباشر عن باقي المستوطنات الفينيقية في المتوسط (صقلية، سردينيا، مالطا، شبه الجزيرة الأيبيرية، شمال إفريقيا) بعد سقوط المدن الفينيقية في فينيقيا ومنها صور على يد البابليون ثم الفرس حيث انتقلت الزعامة السياسية من صور إلى قرطاج .

التزمت قرطاجة في أول تاريخها، بدفع الخراج وتقديم الهدايا لمعبد الإله هرقليس الصوري الإله ملقارت مما جعل بعض المؤرخين يرون هذا العمل الذي قد لا يكون سوى مظهرا للتقوى دليل على خضوعها لمدينة صور في شرق البحر المتوسط كما واصلت دفع الضرائب السنوية للبيبين طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر، غير أنه لما تزايدت مطالب الدولة القرطاجية من أموال وثروات وأخشاب لصناعة السفن وتجنيدا للمرتزقة للدفاع عن كيانها، بدأت تمتنع عن دفع الإتاوة السنوية، مما جعلها عرضة لتدمير السكان المحليين.

كما أن ضيق المساحة التي أسست عليها مدينة قرطاجة أدى بها إلى القيام بعملية توسعية على جيرانها من المغاربة القدماء، وقد ترتب على ذلك تحديد علاقة القرطاجيين مع كامل سكان الحوض الغربي للبحر المتوسط عامة، وسكان بلاد المغرب القديم خاصة وقد كان موقع قرطاجة قد خول لها لعب دور لا يستهان به أدى إلى ازدهارها ماديا وحضاريا كما ساهم في نشر الحضارة القرطاجية، حيث أصبح سكان الحوض الغربي

للبحر المتوسط ينظرون إليها خاصة بعد ازدهار قوتها وتوسع ممتلكاتها بأنها العاصمة الاقتصادية للحوض الغربي للبحر المتوسط.

وإذا كان ميلاد قرطاجة له علاقة بسياسة صور الاقتصادية في غرب البحر المتوسط والضرورة الحيوية التي كان الفينيقيون في أشد الحاجة إليها، مما ترتب عنها من تأسيس محطات ومراكز تجارية لحماية الطريق إلى المعادن الثمينة بترشيش، فإن مصير المدينة الجديدة الاقتصادية البحري والتاريخي هو ثروتها ومجالها الجغرافي الذي جعل منها إحدى قوى العالم القديم التي يحسب لها ألف حساب حينذاك.

4- وصف مدينة قرطاج: تذكر المصادر الرومانية على أن مدينة قرطاج كانت مقسمة إلى ثلاث أحياء سكنية متميزة حسب الطبقات الاجتماعية هي صالمبو بيرصة و ميغارا، ويعتبر حي صالمبو من أقدم الأحياء القرطاجية يليه حي بيرصة و ميغارا ، والأحياء مقسمة إلى شوارع ضيقة تؤدي إلى الساحة العامة وهي عند الرومان الفوروم forum وعند الإغريق agora ونجدها في وسط المدينة تقريبا ، وقد كانت الشوارع مرصفة بالحجارة وعلى حوافها تمتد قنوات لتجميع مياه الأمطار ثم تصب في خزانات و صهاريج للاستعمال اليومي، وحول الساحة العامة نجد أهم المباني الرسمية للدولة مثل مجلس الشيوخ والمحاكم و دار الثقافة وترتفع على امتداد الشوارع أبنية شاهقة يصل ارتفاعها إلى ستة طوابق .

ويحيط بالمدينة ثلاثة أسوار وهي من أهم المنشآت الدفاعية في قرطاج تتقاطع عند البرزخ لتترك فتحة للدخول و الخروج يبلغ ارتفاع كل سور من الأسوار الثلاثة حوالي 13 متر أو أكثر في حين يقدر عرض الجدار بحوالي متر، وقسم كل سور إلى قسمين خصص القسم الأول لإيواء الفيلة والقسم الثاني كان عبارة عن إسطبلات تتسع لأكثر من أربعة آلاف حصان وثكنات عسكرية للمشاة والفرسان.

كما كان في مدينة قرطاج ميناء مزدوج حربي وآخر تجاري وفق الطراز المعماري الفينيقي يقدر عرضه حوالي ثلاثة وعشرون مترا وكان الميناء مقسما من الداخل إلى قسمين تربط بينها قناة يبلغ عرضها 23 مترا عرف الميناء الخارجي باسم الميناء التجاري يبلغ طوله حوالي 456 مترو عرضه 325 مترا وبلغ عرض رصيفه أربعة أمتار إلى خمسة أما الميناء الداخلي أو الميناء الحربي وهو مستدير الشكل يحيط به رصيف يبلغ محيطه قرابة

1021 مترا وعرضه تسعة أمتار بنيت في ناحيته الداخلية حجرات لإيواء 220 سفينة أما الجزيرة الداخلية فخصصت للأميرال وهو مكلف بمراقبة نشاط المياه .

5- الجوانب الحضارية للإمبراطورية القرطاجية .

1 - التنظيم السياسي: يمكن القول أن التنظيم السياسي الذي سارت عليه مدينة قرطاج هو نفسه الذي كان في المدن الفينيقية وفي صور وهو نظام الدولة المدينة حيث يذكر أرسطو في ذلك " ... يعتبر القرطاجيون ممن لهم قيادة حسنة، لأن تنظيماتهم السياسية كانت في مستوى معاصريهم من الإغريق والرومان " ويقول أيضا: "...لقد كانت التنظيمات السياسية الرومانية والقرطاجية جد بارزة..." .

وقد مر النظام السياسي القرطاجي بثلاث مراحل نذكرها:

- المرحلة الأولى تشبه كثيرا نظام الحكم في المدن الفينيقية والتي تعتمد على حكم الملك، ولكن الملكية في قرطاج تختلف تماما عن الملكية في المدن المصرية القديمة والملكية عند السوماريين الذي يطغى عليها الجانب الديني (الطابع الإلهي) بل كان الملك في قرطاج يتم اختياره من الطبقة الارستقراطية .

حكمت في قرطاج في البداية أسرة آل ماقون magone التي دام حكمها قرابة ثلاث قرون، تم إدخال نظام مجلس الشيوخ في عهد هذه الأسرة إلى جانب الملك، لكن ومع منتصف القرن الخامس ق.م وبسقوط أسرة آل ماقون التي ارتكزت في الحكم على الارستقراطية البحرية واستبدل حكم الملك بحكم القضاة أو الشوفيط أين أصبح الملك يكون بالانتخاب بدل التعيين .

- وفي المرحلة الثانية أصبح نظام الحكم يشبه كثيرا النظام الجمهوري وهي مرحلة حكم فيها ملكان أو سبطان إلى جانب مجلس الشيوخ ومجلس المائة ومجلس الشعب والجمعيات ، وهي مرحلة جديدة في قرطاج ، دامت هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد تشبه كثيرا التنظيم السياسي الروماني و الإغريقي وقد ذكر أرسطو ذلك بقوله : "... انه كان في مستوى دساتير معاصريه مثل الرومان والأثينيين..." .

- أما المرحلة الثالثة فقد عرفت الجمع بين المرحلتين السابقتين حيث استمرت من القرن الثالث إلى القرن الثاني قبل الميلاد حكمت فيها أسرة آل برقة وغلب الطابع العسكري في التسيير على الطابع المدني وهي مرحلة الحروب البونيقية ، التي تمكن فيها البرقيين من توسيع أملاك الإمبراطورية القرطاجية في شبه الجزيرة الأيبيرية وفي البحر

المتوسط، وانقسم نظام الحكم في هذه المرحلة إلى ثلاث سلطات هي السلطة العليا ومجلس الشيوخ و الشعب أين أصبح للشعب دور كبير في سياسة قرطاج الداخلية والخارجية.

2-التنظيم الاقتصادي : لعب موقع قرطاج ومينائها دورا اقتصاديا كبيرا في المبادلات التجارية في الحوض المتوسط وتنشيط الحركة التجارية في العاصمة قرطاج، حيث لم يهتم القرطاجيون في البداية بالصناعة و الزراعة بقدر اهتمامهم بالتجارة التي كانت تدر عليهم أرباحا كبيرة .

- التجارة : اتبع القرطاجيون طريقة أسلافهم الفينيقيين في علاقاتهم التجارية مع شعوب غربي البحر المتوسط، وهي طريقة المقايضة، وبقوا على ذلك حتى القرن الخامس قبل الميلاد، أين أخذوا عن الإغريق صك العملة حسب العيار الأثيني، أما مدينة قرطاج فلم تضرب عملتها إلا في بداية القرن الرابع ق.م ، أين أقيم معمل لصك العملة على هضبة بيرصة ، ويتمثل دور القرطاجيين التجاري في إيصال خامات معادن الفضة والقصدير والرصاص إلى الدول المصنعة في شرقي البحر المتوسط، ثم نقلها بعد عملية التصنيع وتوزيعها عن طريق المقايضة لمحتاجيها من الشعوب المتأخرة صناعيا في المتوسط.

لعبت التجارة دورا أساسيا في الحياة الاقتصادية في قرطاج وعلى هذا الأساس سعت إلى احتكار الأسواق وإبعاد المنافسين عن طريقها، سواء بالقوة أو بتنظيم المعاملات بواسطة معاهدات تشترط فيها بعض المزايا، وهنا نشير إلى المعاهدتين اللتين أبرمتها قرطاج مع روما، حيث كانت أولهما سنة 509ق.م والثانية سنة 348ق.م وقد جاء في هاتين المعاهدتين حق قرطاج في احتكار تجارة الحوض الغربي للبحر المتوسط، وألزمت تلك المعاهدة الرومان وحلفاءهم بعدم تعاطي التجارة على شواطئ المجال القرطاجي قبل أخذ إذن من قرطاج وبدورها قرطاج لا تدخل في مجال تجارة الرومان في روما.

تمثلت الواردات القرطاجية في المواد الأولية من إسبانيا مثل الحلفاء الضرورية لصناعة الحبال، إضافة إلى المعادن مثل: الذهب والفضة والقصدير، ومن إفريقيا العاج والأخشاب الضرورية لصناعة السفن ومن سردينيا ونوميديا مختلف الحبوب...الخ، أما الصادرات القرطاجية فيمكننا أن نصفها بالجودة والإتقان، ونذكر على سبيل المثال: الصناعة الحديدية والنحاسية والبرونزية والمعادن الثمينة والأسلحة، وأدوات التجميل العاجية والآنية الخزفية الصالحة للاستعمال واشتهروا بمنتجاتهم الممتازة والأنيقة.

- الصناعة : لم يهتم الفينيقيون كثيرا بالصناعة كاهتمامهم بالتجارة وهي نفس الخطى التي سار عليها القرطاجيون حيث لم تزدهر الصناعة القرطاجية إلا اعتبارا من القرن الخامس قبل الميلاد عندما اصطدمت قرطاجة بإتحاد المدن الإغريقية في معركة هيمرا سنة 480 ق.م اتضح لقرطاجة خلالها أنها لا تستطيع أن تصمد في أي صراع مماثل ما لم تكن لها صناعة قوية.

وقد برع القرطاجيون في صناعة المعادن والثياب الأرجوانية وصناعة الأخشاب وتخصصوا بحكم الضرورة في صنع السفن وآلات الموانئ التي ربما كانت من اختصاصات الدولة ونجحوا أيضا في الدباغة والحياسة والصباغة، وصناعة الفخار المزخرفة أو البسيطة لاستعمالاتهم اليومية، وكذلك صناعة الجرار التي تستعمل لحفظ عظام الموتى الذين كانوا يقدمون قربانا للإلهة تانيت في صلامبو Salambo والتي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن ق. م، كما أن الصناعات لم تكن في أيدي الأرستقراطية القرطاجية، وإنما كانت في أيدي المواطنين الذين كان أغلبهم -حسب ستيفان قزال- تابعين للنبلاء حيث كانت بين أيديهم التجارة البحرية الكبرى.

- الزراعة: تشير الكتابات التاريخية إلى أن القرطاجيين قد برعوا في ميدان الزراعة، فظهر من بينهم العلماء المختصون الذين أغنوا مكتبات العالم القديم، من بين هؤلاء نجد العالم ماغون Magon الذي قدم نصائح قيمة لمن يشتغل بالزراعة خاصة فيما يتعلق بغرس الأشجار ونظام سقيها، إضافة إلى الأماكن الصالحة للزراعة، ومن أهم المزروعات الشائعة في عهد القرطاجيين، نجد على سبيل المثال أشجار الزيتون والكروم والتين والرمان، إلى جانب أنواع أخرى من الخضروات والفواكه، إضافة إلى الحبوب .

فيما يخص اقتصاد بلاد المغرب القديم في الفترة القرطاجية يمكن القول انه كان اقتصادا زراعيا بالدرجة الأولى، أما الصناعة فلم تلعب إلا دورا ثانويا بالمقارنة مع الزراعة وكذا التجارة التي اعتمدت أساسا على تصدير المنتجات الزراعية، وبالتالي يمكننا القول، بأن النشاط الزراعي كان وراء الرخاء الاقتصادي الذي عرفته قرطاجة خاصة بلاد المغرب عامة عبر تاريخها القديم وهذا لا يعني تجاهل باقي الأنشطة التي ساهمت بدون شك في هذا الرخاء الاقتصادي مثل النشاط الإستخراجي سواء من المناجم أو من المحاجر التي لعبت دورا معتبرا ومثال ذلك "الرخام" وكذلك الأخشاب كلها ورغم أهميتها فإنها كانت مكملية للنشاط الزراعي ولم تتجاوزه .

3-الحياة الاجتماعية : من أكثر الأشياء التي تميز بها الفرد الفينيقي النظافة، فقد تعلم القرطاجيون بناء الحمامات وتجهيزها فيما يتعلق بالتسخين وجريان المياه فقد انتشرت

الحمامات في كامل المدن تقريبا العامة والخاصة، حيث وجدت حمامات عمومية لعامة الناس ومنها ما كان مخصصا للطبقة الارستقراطية وعرف عنهم أيضا التطيب وكثرة استعمال العطور رجالا ونساء .

وما يميز الفرد القرطاجي انه كان يعفي اللحية ويتركها طويلة، ويعتني بشعره نساء كانوا أو رجالا مستعملين في ذلك أمشاطا من العاج، حيث وجد الكثير منها في القبور القديمة وتظهر عليها في الغالب نقوش جميلة حيث كانت النساء البونيقيات يفتخرن بطول شعورهن كما استعملوا المرأة في شكل قرص مستدير كما كانت النساء يتزين بمختلف أدوات الزينة من ألوان وكحل...الخ.

أما اللباس فقد كان الصوريون يلبسون جبابا طويلة من الصوف فضفاضة (كما هو الحال في الوقت الحاضر) وقد لا يضعون فوقها أي رداء آخر فوق الجبة على عكس ما كان عند اليونانيين والرومان كما كان الفينيقيون لا يخرجون مكشوفين الرأس كما يفعل المصريون والليبيون وكانوا يضعون قلنسوة طويلة مستديرة أو اسطوانية وقصيرة وكانوا يلبسون في أرجلهم نعالا أو أحذية .

أما الطعام فقد اشتهر البونيقيون باستعمال الحبوب وزيت الزيتون ويطبخون الحساء البونيقي كما صنعوا مختلف الحلويات وبأشكال مختلفة وكانوا يكثر من أكل الثوم والبقول ومختلف الخضر والفواكه ويدمنون شرب الخمر، ولا يأكلون لحم الخنزير ويفضلون أكل لحم الكلاب وكذلك يكثر من أكل الأسماكالخ.

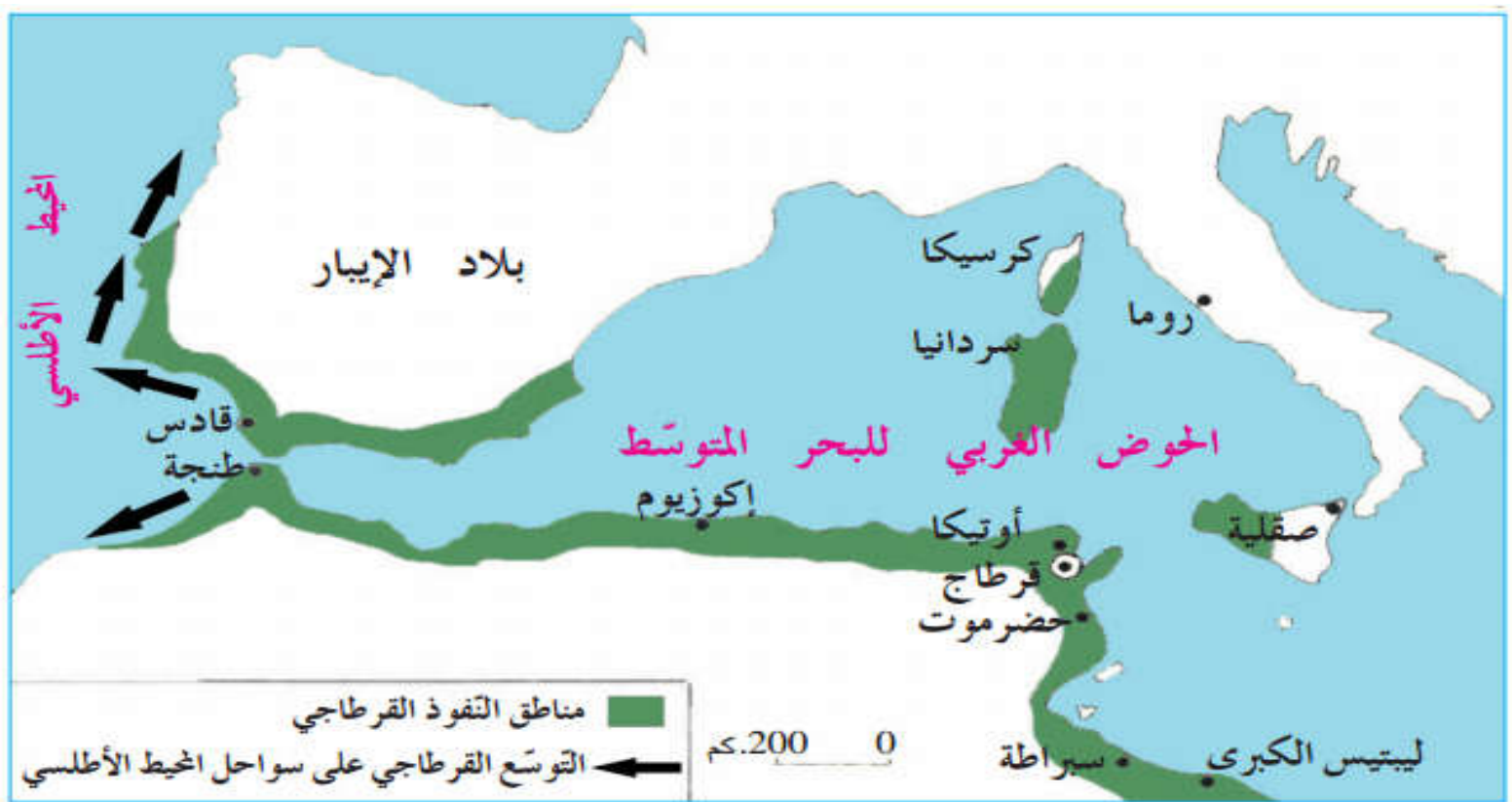
4- الحياة الدينية: كان للدين مكانة مرموقة في حياة القرطاجيين العامة والخاصة وما يدل على ذلك صيغة أسماء الأعلام التي كانوا يحملونها مثال ذلك: معطبل أي عطية بعل وحبعل أي حن عليه بعل ، وقد كانت حكومة قرطاج في كل سنة توفد رسلا إلى مدينة صور يحملون الأموال والهدايا إليها ويقدمون القرابين إلى الإله ملقرط مع مظاهر الطاعة والإجلال ، كما كانت المعاهدات تبرم تحت حماية ورعاية الآلهة .

وقد عبد القرطاجيون العديد من الآلهة وانتشرت لديهم ظاهرة توحيد الآلهة في شكل ثنائي أو ثلاثي للآلهة، وأشهر الآلهة عند القرطاجيين نجد بعل حمون وتانيت، كما عبد القرطاجيين آلهة فينيقية (ملقرط ، اشمون) وأجنبية مصرية وإغريقية، وكان لكل مدينة بعلها أو إلهها الذي تعبده كما كان في قرطاج عدد كبير من المعابد أين يلحق بها عدد من الكهنة والكاهنات والذين يسهرون على خدمة الآلهة وتقديم القرابين وتنظيم شؤون المعبد وإقامة الشعائر والطقوس الدينية .

5- التنظيم العسكري : لم تكن قرطاج تملك جيشا بأتم معنى الكلمة فقد كانت تتعهد في أوقات السلم فرقا قليلة من الجنود توزعها على ممتلكاتها في المناطق التي تسيطر عليها لحفظ الأمن وترقبا لأي هجومات خارجية، كما كانت تجند الجيوش في وقت الحرب ثم يتم تسريحهم بعد أن تستقر لها الأوضاع والسلم حيث كانت الحرب بالنسبة لقرطاج عملية تجارية لا أكثر ولا اقل تنتهي تارة بأرباح وتارة بخسائر ككل العمليات التجارية الأخرى .

وكانت قرطاج تعتمد بشكل كبير في حروبها على تجنيد المرتزقة (الجنود المستأجرة) من مختلف الجنسيات فقد استأجرت بالليغوريين و السلتيين (تسكن بلاد الغال) ومن الإغريق واسبانيا حيث استعانت بهم في معركة هيمرا سنة 480 ق.م كما استعانت بهم في سياستها التوسعية داخل الأراضي الليبية في القرن الخامس قبل الميلاد الأمر الذي مكّنها في الحروب البونية من تجنيد عدد كبير من الليبيين في حروبها مع روما كما تمكنت من استقبال عدد كبير نتيجة تحالفها مع الممالك الليبية خاصة من نوميديا .

كما كان لقرطاج أسطولاً بحرياً قوياً حيث استعملوا نوعين من السفن، السفينة الطويلة للحرب تحركها المجاذيف والسفينة المدورة تسير بالشرع معدة للتجارة والحمولة، وقد كانت قرطاج مشهورة بين الأمم القديمة ببراعتها في الحروب البحرية وفي نشاطها الكبير في التجارة في البحر المتوسط.



مجال نفوذ قرطاج



مناطق النفوذ القرطاجي الروماني الاغريقي في المتوسط قبل الحروب البونيقية

6- العلاقات القرطاجية مع القبائل الليبية .

اتسمت العلاقات القرطاجية مع القبائل الليبية منذ البداية بنوع من التحالف والتعاون، ما يدل على ذلك الضريبة السنوية التي كان يدفعها القرطاجيون للملوك الليبيين منذ تأسيس مدينتهم في القرن التاسع قبل الميلاد إلى غاية القرن الخامس قبل الميلاد على اثر الخسارة الكبيرة التي مني بها القرطاجون بسبب معركة هيمرا ، و مع اشتداد الصراع القرطاجي الإغريقي أين توقف القرطاجيون من دفع الضريبة وباشروا التوسع داخل الأراضي الليبية الأمر الذي زاد من توتر العلاقات القرطاجية الليبية واخذ منحى الصدام والمواجهة بين الطرفين .

فمن الناحية الاقتصادية تذكر المصادر أن العلاقات التجارية بين الليبيين و الفينيقيين ثم القرطاجيين من بعد تعود إلى فترة زمنية سابقة لمرحلة الاستيطان في الحوض الغربي للمتوسط أي إلى مرحلة الارتياح الفينيقي لهذه السواحل في نهاية الألف الثانية ق.م ، ويحدثنا هيرودوت في ذلك عن المبادلات التي تتم بين الطرفين بواسطة المقايضة ويذكر بان الفينيقيون كانوا يعرضون تجارتهم على المرفأ عند بلوغهم أرض الليبيين، ثم يشعلون نارا ليصعد منها الدخان ويعودون إلى مراكبهم ، وبمجرد أن يرى أولئك القوم النار يأتون ويضعون مقدارا من الذهب على الأرض مقابل تلك البضاعة ، ويبتعدون فيتقدم حينئذ القرطاجيون فإذا ما رأوا أن كمية الذهب مطابقة لثمن بضاعتهم أخذوه وذهبوا وإلا مكثوا في أماكنهم حتى يضيف لهم الزبائن في الثمن.

ومع نهاية الصراع القرطاجي الإغريقي وبداية الصراع القرطاجي الروماني تفتنت قرطاج لدور الممالك النوميدية في مختلف الأحداث التي جرت في البحر المتوسط فسعت إلى إعادة ربط وتحسين علاقاتها مع الممالك النوميدية ، يظهر ذلك من خلال تحالف قرطاج مع الملك غايا ملك الماسيل ضد الملك صيفاقص ملك المازيسيل في الصراع الذي حدث بينهما بسبب الحدود بينهما وبدوره الملك غايا تعهد بالتعاون ومساعدة القرطاجيين ضد الرومان وإمدادهم بالجيوش.

كما نجد قرطاج مرة أخرى تتحالف مع ملك المازيسيل لما لاحظت أن قوته تتعاظم وأنها بحاجة إلى تحالفه معها في حربها ضد الرومان وهو بدوره وجد في قرطاج الفرصة المناسبة لإرغامها عن التنازل و الانسحاب من الموانئ التي تسيطر عليها في إقليمه واتسعت العلاقات إلى المصاهرة بين الطرفين .

رغم التوتر الذي طبع العلاقات السياسية القرطاجية الليبية خلال الفترة 480-146 ق.م إلا أن ذلك لم يمنع من حصول تقارب في وجهات النظر بينهما ومواجهة الخطر الروماني بما كان يخدم مصلحة قرطاجة بالدرجة الأولى، والظاهر أن قرطاجة انتهجت سياسية الكيل بمكيالين تجاه جيرانها الليبيين بحيث لم تتمكن من ربط علاقات ودية مع هذه الممالك في نفس الوقت ولم تنجح في التوفيق بينها فتحالفها مع احد الأطراف يكون على حساب الآخر، فصداقتها لسيفاكس ما لبثت أن ساءت بسبب وقوفها إلى جانب غايا ملك نوميديا الشرقية إثر خلافه معه.

و يمكن التأكيد على وجود روابط اجتماعية بين القرطاجيين والليبيين رغم قلة الشواهد التاريخية و الأثرية التي تثبت ذلك منها أن الملك الليبي حيرباص قد طلب الزواج من الملكة عليسة بعد أن قبل بتأسيس مدينتها في قرطاج، الأمر الذي يدفعنا إلى القول انه يمكن أن تكون هناك علاقات مصاهرة بين الطرفين قبل أن يصل الملك لطلب يد الملكة عليسة والتي فضلت الانتحار على الزواج إخلاصا لذكرى زوجها عشر باص .

وقد يكون الهدف من الزواج سياسيا لا اجتماعيا إذا ارتبط الأمر بعائلات الطبقة السياسية و الارستقراطية و هو حال الملك ماسينيسا الذي وعده القرطاجيين بتزويجه الأميرة صوفونيسب ابنة صدر بعل لكنها لم تكتمل وتم تزويجها للملك صفاقص قصد كسب تأييده لقرطاج ومساندته لها في الصراع الذي كان بينها وبين الإمبراطورية الرومانية، في حين نجد أن الليبيين زوجوا بناتهم للقرطاجيين وهو حال ماسينيسا الذي زوج إحدى بناته لأحد أفراد الطبقة الارستقراطية القرطاجية، وما يؤكد العلاقات الاجتماعية العثور على العديد من الأسماء المزدوجة الليبية القرطاجية في القبور القرطاجية، الأمر الذي يؤكد وجود واستمرار العلاقات الاجتماعية بين قرطاج والليبيين إلى غاية سقوط قرطاج.

كما أدت العلاقات القرطاجية الليبية إلى ظهور حضارة ممزوجة بين الطرفين وصلت إلى حد المعتقد الديني حيث احتلت فيها آلهة الخصوبة بعل حمون و تانيت السيادة الدينية واشتركا في الاحتفالات الدينية والطقوس الجنائزية وتقديم القرابين خاصة البشرية ، النباتية و الحيوانية وطرق الدفن وبناء المعالم الجنائزية .

و فيما يخص العلاقات الثقافية فلم يصلنا الكثير بسبب قلة المصادر الأثرية التي تبين ذلك من ذلك بقايا اللغة البونيقية التي هي نتاج تفاعل حضاري وامتزاج بين اللغة الفينيقية والليبية، حيث عرفت اللغة الفينيقية تطورات كبيرة إذ دخلتها تعابير وتراكيب لغوية ليبية وظهر ما يسمى باللغة البونيقية التي انتشرت في كامل المستوطنات والمدن القرطاجية في المتوسط وفي المدن النوميدية الكبرى خاصة الشرقية والساحلية ومنها ما يؤكد ذلك العثور على نقوش وكتابات بونيقية في مناطق مختلفة من بلاد المغرب القديم خاصة على الأضرحة وفوق الأنصاب النذرية، واستمرت اللغة البونيقية في الانتشار بعد سقوط قرطاج حيث ذكر القديس أوغسطين الذي عاش في القرن الخامس أن سكان الريف يتكلمون البونيقية ، ونتيجة لهذه العلاقات بين القرطاجيين و الليبيين في جميع مناحي الحياة الاقتصادية الاجتماعية الدينيةالخ، ظهرت حضارة جديدة في بلاد المغرب القديم عرفت عند المؤرخين باسم الحضارة البونية أو البونيقية وهي امتزاج حضاري فينيقي-ليبي .